روسيا امس واليوم (١)

ما سألقيه عليكم اليوم عن روسيا مقتبس من مؤلف جليل ظهر حديثاً بقلم الخطيب الاجتماعي الشهير الدكتور شرودّ أدي صاحب الخطب الرنانة في ملهى الكورسال بالقاهرة كتبهُ بعد زيارتهِ لمصر اخيراً وما تبع ذلك من سياحتهِ الطويلة في اطراف المعمورة قال

قبل ان نصور لكم روسيا تلك الدولة المغلوبة على امرها الجديرة بكل عطف وحنان أضع امامكم بعض الارقام الجغرافية الناطقة بما هي عليهِ من الضخامة والاتساع. كان عدد سكانها في بدء الحرب العظمى تسع عدد سكان العالم ومساحتها سدس مساحة اليابسة كلها . وتوازي كلاً من فرنسا والمانيا واليابان ٤٠ مرة. ولو خصّ الميل المربع فيها من السكان ما خصّ بلجيكا لبلغ عدد سكانها اكثر من ثلاثة آلاف مليون نفس او ضعف سكان العالم باجمعهِ

لما نشبت الحرب العظمى سنة ١٩١٤ كان الشعب الروسي يجهل المفاوضات السرية التي دارت بين آل هوهنزلرن وهبسبرج وروماتوف وبثّ تحت كاهل الظلم والاستبداد . فاندفع الجنود كالسيل الجارف الى هوّة الحرب . وكان القواد يتحيزون للالمان اعدائهم فخانوا جنودهم وتصدوا اخفاء الذخيرة والسلاح عنهم وساقوهم امامهم كالمواشي وذبحوهم بين الوعور والبطاح ذبح الاغنام . ولا عجب اذا فقدت روسيا في الحرب من رجالها ما لم تفقدهُ دولة اخرى . فقد بلغ عدد جنودها ١٣ مليوناً وهو أكبر جيش دُوّن في بطون التواريخ مات منهُ ثلاثة ملايين وأسر الالمان والنمساويون مليونين حُجزوا في سجونهم وذاقوا صنوف الذل والعذاب ورجع منهم الباقون على قيد الحياة هياكل بالية قضى اكثرهم نحبهُ في الطريق وظلّ الباقون يعالجون سكرات الموت تحت انياب الامراض . ففتكت الاوبئة بالسكان ودبّ الجوع وسرت الفوضى وقامت الثورة وهجم العدو من الخارج وتضاعفت خيانة القواد من الداخل .فنفدت القنابل وعدمت الاسلحة والذخائر . وظلّ الجنود يكافحون العدو ضرباً بالعصي ورشقاً بالحجارة حتى انحلت

(١) خطبة القيت في الجامعة الاميركية بالقاهرة في ٢٥ اكتوبر الماضي

قواهم وضاعت آمالهم وسقطت الحكومة من عيونهم. فقامت روسيا الجائعة على بكرة ابيها هائجة على وجهها صارخة مستغيثة تمساً للحرب. السلام السلام. الطعام الطعام

وظلت الحكومة امبراطورية حتى العاشر من مارس سنة ١٩١٧ وفي اليوم التالي اصدر القيصر امراً بتعطيل مجلس الدوما فرفض الاعضاء الارفضاض واسفرت النتيجة في نهاية الامر أن اضطر القيصر الى التوقيع على صك التنازل عن العرش

***

تُعزى الثورة في روسيا الى انتشار المبادىء الاشتراكية وفلسفة كارل ماركس الاشتراكي الالماني. فقبض البلشفيون على زمام السوفيت أي مجالس العمال واستلموا مقاليد الامور واخذوا على عاتقهم نشر السلام وايجاد الطعام. وهما حاجة الشعب المنشودة. وجندوا عمال المصانع وأطلقوا عليهم اسم الجيش الاحمر. ونشروا خططهم على رؤس الملأ وأهم ما فيها توزيع الاراضي والاملاك على الناس وتسليم مقاليد الصناعة للعمال واعطاء النفوذ للسوفيت

وكان زعيم البلشفيين نقولا لنين ممزج تعاليم كارل ماركس الاشتراكي. وانحصر همهُ في القضاء على العواطف الاجتماعية والاحزاب السياسية واصحاب رؤس الاموال والاستبداد القيصري. فاستولى على بتروغراد في ٧ نوفمبر وأعلن البلشفيون انهم حكومة روسيا. وتشكلت الوزارة وعلى رأسها لنين. وسرعان ما انتزعت الاملاك من اربابها ومُنحت للعمال الذين لا مأوى لهم. ووضعت الحكومة يدها على المعامل وسلمتها للعاطلين. وحرّمت على الافراد تملك العقار

أخذ نجم روسيا في الأفول بعد تطرّق الفساد الى الجيش. لان السلطة انتقلت من ايدي القواد الى الجنود. وساد الخلل وتفشت الفوضى فتقهقرت الجحافل الى غاليسيا. وتزاحمت الجيوش كالذئاب العاوية كتلةً واحدة من الاوباش والسوقة يصرخون الخبز الخبز. وفي ٧ ديسمبر سنة ١٩١٧ اضطرّ البلشفيون ان يوقّعوا مع المانيا معاهدة الذل والانكسار في Brost-Litovsk

ولم تنطو الصفحة الاخيرة من سنة ١٩١٧ حتى رجعت روسيا تجرر اذيال

الخيبة فاستقلت فنلندا واخذت سيبيريا والقوقاز وتركستان وبولندا والتركُ ينادي بحكومة مستقلة . واصبح كلٌّ يصيح في دائرته ها نحن أحرار . فشق الجنود عصا الطاعة لانهم احرار . وعمد العمال الى البطالة لانهم احرار . وزالت الملكية اكراماً للحرية . وقبرت رؤوس الاموال حبًّا بالحرية . واوصدت البنوك للحرية . ووقف دولاب الاعمال وأخذ تبادل السلع يحل محل التجارة واصبحت النقود الورقية عديمة القيمة . ومات الناس كالفراخ في الطرقات والشوارع لانهم اصبحوا احرار

أما وقد تمثّل لنا ما وصلت اليهِ روسيا من الشقاء بعد سيادة البلشفية عليها فوجب ان ندرك كنهها لان ضررها لا ينحصر في روسيا بل هي خطرٌ عام على العالم اجمع . لم تكن الثورة الروسية حادثاً فجائياً بل نتيجةً لازمة لانفجار امة طال عليها الضغط الف سنة تحت نير الحكم الاستبدادي . وما كاد يرفع كابوس الظلم والتعسُّف حتى هرع الناس الى الاشتراكية افواجاً علهم يجدون بين احضانها العدل والانصاف . كان ستون في كل مائة من الشعب الروسي يلبسون الرَّثَّ من الثياب . ويقتاتون بسخيف الطعام ويعيشون في اخصاص حقيرة تعافها البهائم . كان السواد الاعظم من السكان عمالاً بؤساء وثلاثة ارباعهم اميين . وقال احد الوزراء ان سبب الثورة قيصر خامل وقيصرة مكروهة وجيش دبَّ فيهِ الخيانة ووزراء مرتكبون وقضاة ظلمة ونواب سفلة ومأساة زحزح الستار فيها عن اعدام الاشتراكيين شنقاً وفض مجلس الدوما وزجّ النوّاب في اعماق السجون وتعذيب اليهود وتدنيس فتلندا ونصب المشانق في مدن فارس . هكذا كانت الثورة انفجاراً فجائياً هائلاً لمرجل طال عليهِ الاغلاء واهوات استعانة مريعة خارجة من افئدة قضى عليها الجوع والعري والاستبداد وأُظلمُ الهمجية والوحشية

ولكي نفهم البلشفية جيداً يجب ان نفرّق بين عنصرين مهمين . الاول عنصر السوفيت وهو النظام الديموقراطي لمجالس العمال والثاني عنصر البلشفية وهم زعماء الاشتراكية المتطرفة الذين تغلّبوا على السوفيت واستخدموهم آلة لتنفيذ خططهم . فالسوفيت يتكونون من طوائف العمال والجنود والصناع والمعلمين وارباب المهن ذوي المبادىء الديموقراطية الذين لجأوا سنة ١٩٠٧ الى الطبقة المتوسطة فلم يجدوا فيها منقذاً . فلا غروَ اذا رأيناهم يلقون بانفسهم على الطبقة السفلى من العمال الذين

يبلغون ٨٠ في المائة من السكان وكونوا جمهورية السوفيت التي تتلخص مبادئها في الامور الآتية

(١) جعل روسيا حكومة جمهورية للسوفيت (٢) منع تقسيم الشعب الى طبقات واستخدام بعضهم للبعض الآخر (٣) جعل العقار ملكاً عامًّا للامة كذلك الغابات والمعادن والثروة عموماً (٤) استخدام المعامل والسكك الحديدية ووسائل النقل والانتاج جميعها لمصلحة العمال (٥) تحويل البنوك الى الحكومة تحريراً للسكان من تعسف ارباب الاموال (٦) تحرير اللاجئين من العمال الارقاء في آسيا والمستعمرات (٧) فصل الكنيسة عن الحكومة والمدارس عن الكنائس (٨) حرية الاجتماع ونشر التعليم المجاني والمساواة بين الجميع من غير التفات الى الدين والجنس وحماية الاقليات

ان جمهورية السوفيت جديرة بالثناء . قد توجّه اليها انتقادات مرّة لكن أليس من العدل ان نذكر ان زعماء السوفيت قاموا بامتحان نظرياتهم الاشتراكية في اسوأ الاحوال . لقد شيدوا جمهورية على انقاض روسيا وهي تتضور جوعاً وتبكي أسًى . وعالجوا جيشاً مفكّك العُرى خماص البطون . لقد خلف لهم اسلافهم خمسة اجيال ذاقوا فيها سنوف الذل . واربع سنوات في الحرب العظمى تجمّد فيها الدم الروسي وأُمِيتت حياتها الاقتصادية الحصر البحري وفصلها عن سيبيريا ورغم ذلك كلهِ قامت حكومة السوفيت سنتين كاملتين

لننقل الآن من حكومة السوفيت التي تناولت روسيا كلها الى البلشفية او الحزب الاشتراكي الصغير المتطرف المهيمن على حكومة السوفيت . يتساءل الكثيرون ما هي البلشفية — البلشفية كما عرّفها لنين زعيمها هي حكم العمال المطلق . هي الخضوع التام للعمال . هي الضرب بيدٍ من حديد على ارباب الاموال . هي اشتراكية فوضوية متطرفة عامة . البلشفية تعمل على قلب المثلث الذي يضع القياصرة والامراء في الرأس ثم يتدرج الى الطبقة الوسطى من التجار ثم يضع الطبقة السفلى من العمال الى الاسفل . البلشفية تطلب مصلحة العمال قبل الديموقراطية . وتضع الثورة فوق التطوّر . والدولية فوق الوطنية . والتخريب فوق التشييد والهدم فوق البناء . ولما حملت الثورة تمزّق روسيا شرّ تمزّق سقطت فريسة

لاولئك المتطرفين فافقد اليهم الشعب انقياداً اعمى وركب مع السوقة متن الاخطار وانشط

وقد صرح لنين زعيمهم قائلاً ان ١٥٠ الفاً من الاعيان كانوا يسيطرون على ١٣٠ مليوناً من الشعب الروسي تحت الحكم القيصري كذلك يود مئتا الف من البلشفيين ان يسيطروا على ذلك الشعب . وقسّم البلشفيون السكان في بادىء الامر الى اربع طبقات مرتبة حسب اهميتها (١) طبقة العمال اليدويين (٢) العمال الكتبة (٣) اصحاب المعامل (٤) ارباب العقار والاموال والاغنياء . واصدروا بطاقات لتوزيع الطعام ولما كان اقل من ان يكفي الطبقة الاولى الغيت الطوائف الاخرى وحرمت التجارة وحصرت موارد الطعام في مخازن البلدية ووزعت الاطعمة على الجنود اولاً والعمال ثانياً وترك الخيار للطبقتين الاخريين . فاما الموت جوعاً او المهاجرة او الاندماج في سلك العمال

وينقسم الروس الآن حقيقة الى ثلاث طوائف : (١) الرجعيون وهم اهل الطبقة الراقية من الاعيان وكبار الموظفين ويبلغ عددهم عشر السكان تقريباً . هؤلاء يتوقون الى رجوع حكم القياصرة حتى يعود اليهم العز القديم . ويعتقدون ان انفلاح غير جدير بالتعليم (٢) البلشفيون وهم اقل من عشر السكان (٣) وبين هاتين الطبقتين طائفة المعتدلين الذي يطلبون الحياة الديموقراطية التي سارت بها ارقى الامم في عصرنا الحاضر

وقد وصلت روسيا الآن الى حالة يرثى لها . فقد ارتفعت الاثمان الى حدّ لا يدركهُ العقل ومات جيشٌ عرمرم من العمال العاطلين وانتشرت الامراض الخبيثة وهُدمت المنازل واستعمل خشبها وقوداً . وبلغ الجوع حدّهُ حتى قيل انهم يستخرجون جثث الموتى ويطحنون عظامها ويطهونها بدل الخبز

وتدل قرائن الاحوال على ان روسيا تجتاز الآن تطوراً ثالثاً . فقد كانت الثورة الاولى سياسية وانتهت بخلع القيصر . والثانية بلشفية وغرضها تمزيق شمل ارباب الاموال والتجار . اما الثورة الثالثة فستكون سياسية اجتماعية معاً حتى تسير على مبدأ الديموقراطية وهي وحدها كفيلة بنجاحها . أما كلٌّ من مبدأي القيصرية المستبدة والبلشفية المخرّبة ثبتَ على الاثرة وحب الذات والتفريق بين

طائفة واخرى ومآله الفشل . والديموقراطية وحدها هي التي يجب ان تسود وكل مبدإ سواها مقضي عليه

كلمة ختامية

ألا يجدر بنا ان نعطف على روسيا . أليست هي نقطة الاتصال بين الشرق والمغرب . هي اقصى الممالك غرباً بين الامم الشرقية واقصى البلدان شرقاً بين الامم الغربية . لا زالت افئدتنا تخفق رجاء في روسيا وما زالت آمالنا وطيدة فيها . أليس لنا آمال في الانسانية . أليس لنا آمال في الله . اذن لم نقطع الرجاء والآمال في روسيا

ان شعباً عظيماً يتقلب الف سنة كاملة على جمر الالم لا تضيع الامة هدراً . ان الانسانية لا ترضى ان ترى سدس الكرة الارضية يتعذب سكانهُ دوماً ضحية الفوضى والخراب . ان الكرم والاخاء الانساني يحتمان علينا مدّ يد المعونة الى روسيا الشقية الذائبة في الاتون الناتئة على اللظى اليقظة في اللهب الحية الميتة . ان روسيا البلشفية لخطرٌ يهدد كيان العالم وبؤرة جراثيم يخشى انتشارها بين امم الارض . ان روسيا وهي سالمة هادئة راقدة في بحبوحة العز بركة على الارض كلها . من لنا بابطال روسيا الاماجد امثال بطرس الاكبر الذي قتل ابنهُ بيديهِ مخافة ان يدنس عرشهُ بعدهُ ويجرّ روسيا الى مراتع الهلكة . نعم لو بُعث اولئك الابطال اليوم لرجموا الى اجدائهم مذعورين

يا لها من ضحية كبرى تقدّمها روسيا . ولكن صبراً جميلاً . فان تذهب الضحية بلا ثمر . ألم يزل الله في السماء اذاً لماذا تموتُ روسيا وتروحُ الضحية هباء منثوراً وحبل الرجاء بين الارض والسماء لن يقطع ما بقيت الارض ودامت السماء

فلتعطُ خريطة أوربا مرة اخرى . ولكن ليكن لنا روسيا جديدة . واوربا جديدة . ودنيا جديدة

امير بقطر

مصر

سكرتير الجامعة الاميركية